احمد الشرفي

مشكلة اللغة العربية في الادب المعاصر

استسمح الادباء ان نطفلت على طرق هذا الموضوع الخاص بمشكلة اللغة العربيه في مجال الادب الذي ضعف جذبه عند الشباب وتقلص ظله في الحياة المعاصرة ، فان كانت اللغة العربية مشكلة في الادب، فهي عقبة صعبة التجاوز في نظر البعض لعدم استيعابها جل مكتشفات التقنية والعلم ، طافتي الدفع للتقدم المادي، وفوتي التحريك للحياة المعاصرة في جميع الجوانب وفي مختلف الاتجاهات .

فأي مؤتمر آجدر من مؤتمر الادباء في أن يتوسع في زاوية بحثه للمشكلة ، وتحليله للاسباب المعطلة للغه وتقديمه للحلول الصغيرة للوضع والتزامه بالعمل الجاد وبالتنفيذ الصائب حتى يكون في مستوى الحدث التاريخي فعلا وتأثيرا وطفوحا ؟

فمشكلة اللغة العربية لا تخص اذا الادب المعاصر مثلما تمس الحياة المعاصرة اتني يحتاج فيها الفرد للتعبير عن كل ما نفع عليه حواسه ، وما يجول في خاطره من أفكار واحداث ، آذ اللغة تعبر عن تفكير آو اصطلاح تتجسيم ، آو رمز لمحسوس ، تتطور كلما اتسع الفكر ونفذ الحس وازداد التجسيم ، متفاعلة في ذلك مع الوسط الداخلي الذي نستمد منه عناصر النمو واتجاه التطور ، ومتأثرة بالمحيط الخارجي لاعطاء ما نفرزه من ابتكار مادي وتجديدفكري.

وتتميز حيوية اللغة بقابليتها للاستيعاب ، وطواعيتها للاستعمال، وقدرتها على التحويل والتعويض والتوليد حتى تساير اكتشافالعلم وتقدم الفكر وانتاج الصناعة .

وحسب هذا الاطار آتوظيفي للغة ، نستطيع القول بآن اللغة العربية تمر الان بآزمة في ذاتها من حيث السكون ، وتكون مشكلة في مجتمعها من حيث الاختلاف في جميع المجالات الادبية والعلمية والاقتصادية والتربوية ، لا بد لنا من ربط هذه بتلك في معادلة حركية نطلق عليها علميا بتابع الطور :

اللغة = تابع (الانسان) في المكان والزمان ، آي مهما تقدم الانسان تقدمت لغته وكلما تخلف تخلفت ، وحيثما مات مات في كل موقع وفي كل عهد ، وبهذا التابع الرياضي ، نضبط ثوابت اللغة في القواعد النحوية والصرفية ونبحث عن متغيراتها في ابعادها المكانية التي تؤثر فيها وتتأثر بها ،وفي بعدها الزماني الذي يميز حاضر اللغة عن ماضيها ومستقبلها .

ومن خلال تجميع كل العوامل الساكنةوالمتحركة،الثابتةوالمتغيرة، واحصاء جميع المركبات المتصاحبة والمتناقضة : يمكن أن نرسم صورة الطور الذي تمر به اللغة العربية اليوم ونستشف ملامحه فيالمستقبل بادق رؤية وافعية واكثير قيمة احتمالية ، وذلك بما نضع منمؤثرات وما نهيء من وسائل ، وما نجمع من عناصر ، وما نسخر من طاقات .

فبهذه الطريقة العلمية في البحث والمنهج التجريبي في الدراسة، يمكن ان نساهم في معالجة مشكلة اللغة العربية في الحياة المعاصرة ، وان كنا من غير اللغويين والادباء ، من خلال زاوية رؤيتنا للمشكلة في اصعب ميدان للغة واشق مجال في الكتابة من حيث الافراز اليومي لعديد العناصر والاجسام والمركبات التي لم يسبق لها اسم في قاموس او استعمال في الحياة .

فالادب المعاصر هو ما يعبر عن مشكلات الانسان المعاصر ، وما يعالج حاجيات المجتمع المعاصر بلغة معاصرة يفهمها من ينطقها في كل ارجاء الوطن الذي تنتمي اليه ويستعملها في كل مجالات الحياة بحيث تنتشر الكلمة الحاملة لمعنى محدد في مجتمع متجانس التركيب مثلما تنتقل الموجة الصوتية في وسط متجانس التكوين دون ان تجد في طريقها عوازل او عوائق تمنعها من النفاذ أو تصدها من العبور او تعكسها على الحد الفاصل لاستعمالها ، وبالتالي لا تتجاوز حدود القرية او المدينة او الجهة او القطر ، كما هو الحال في كتابات ادباء العامية واللهجات المحلية الذين لا ينتشر صوتهم اكثر من مدى الرؤية لبطرهم .

فالادب المعاصر هو ايضا ما يكتب بلغة لا تعزلها حدود اقطار او جهات ذات تركيب اجتماعي واحد ، وانما تعكسها حدود امم تختلف في الاصل والتكوين والتركيب ، وهو كذلك ما يستعمل لغة تمسح كل مجالات النشاط الانساني ماديا وفكريا دون عزل او انفصال ، ومن غير ثمل في النطق ، او استهجان في السمع او خلل في قواعد اللغة . فالطور الذي عليه اللغة والادب المعاصر يشبه من حيث الحالة وضع العدسة المبعدة التي لا يلتقي فيها الطموح مع الواقع الا في البؤرة الخيالية للماضي .

لقد واجهت اللغة العربية تحديا حضاريا في صدر الاسلام . وتمكنت من هضم حضارة عصرها في جميع المجالات حتى اصبحت لغة الفكر والعلم والحياة بفضل ما انعم الله به على هذه الامة من كتاب منزل مبين حفظ للغة سحرها وفصاحتها واعجازها وجعلها تتفاعل مع الكائن والكون ومع المادة والروح ، تفاعلا حيا بالاخذ والعطاء ،مستعملة طرق النحت والقياس والاشتقاق والتوليد والتعريب لكل جديد في الاكتشاف وحديث في المعنى، حتى اصبحت لغة تعبر عن كل المعاني الفكرية والاكتشافاتالعلمية والمعاملات الاقتصادية والاتجاهات السياسية التي وصلت اليها قمة الحضارة الانسانية بالفاظ عذبة السمع وبكلمات سهلة النطق تخطت بعد المكان وتجاوزت حدود الزمان واعطت للغة صفة الحياة في كل معانيها وللادب صفة الشمول في جميع جوانبه .

ونتيجة لعوامل تاريخية معينة ـ مثل زحف التتار والحروب الصليبية والهجمات الاستعمارية بقصد تقويض حضارتنا العربية الاسلامية من شل لنطورها عنصرا بعد عنصر ، وتفكيكها رابطة اثر رابطة ، وتجزئة وطنها الى اشتات من الارض وفصائل من الشعوبحتى يزول التكامل وينفصم التجاذب ويتزايد التناقض ، وتحول ايجابيات الحضارة الى سلبيات التخلف ، نتيجة لذلك كله ـ ما قد ورثه جيلنا وما تأثر به وما عبر عنه الكثير بالقبول والاستسلام للامر الواقع حينا ، او بالرفض والتحدي حينا آخر .

وتجلى هذا الوضع في الصراع القائم بين دعاة العامية وادباء

اللهجات المحلية من جهة ، تنفيذا لمخططات التفسيم وتركيزا لعقيدة الاقليمية والشعوبية خدمة لاهداف استعمارية عن قصد او عن جهل بالاحداث او عن حسن نية .

ومن جهة اخرى بين دعاة الفصحى التي نزل بها القرآن ويفهمها كل من ينتمي للمجتمع العربي والتي تكون همزة الوصل بين الافراد والاقطار والاجيال ونمثل عنصر التنشيط في تجميع الشتات ووحدة الاجزاء .

ومن الادب المزيف ايضا الدعوات المشبوهة التي تنادي بتعويض الحروف العربية بالحروف اللاتينية حتى تستجيب في نظرهم للتطور وتعبر عن مكتشفات العصر ، وكأن اللغة هي الانسان والعمل هو اللسان ! ومن هذا القبيل الصراع الحاد ايضا بين دعاة التعريب لاسترجاع التائه في الخيال والعجز والاحلام الى حقيقته ووافعه .

وكذلك المهاجر الذي يلهث عن غداء فكره في ضباب اوروبا او في جليد سيبيريا او في سراب انتبت او في صحراء نفادا ، الى اصل حضاريه ومنبع ذاته الخاليين من سموم التعفن وجليد الجمود وعوائق التقدم والتطور ، وبين دعاة المسخ والذوبان سواء بالتبشير والتنصيب او بالولاء والانتماء ، مثلما يبدو ذلك جليا في المحافظة ماديا وفكريا ولغويا على المناهج الاستعمارية في كل الميادين ، او تقليد مناهج اجنبية تقليدا خاليا من روح التجديد وطاقة الابتكار .

وحسب هذه الخلفية من الصراع والتناقض والمواجهة المفروضة من السلبيات والمشاكل التي تولد عن تفاعلها أدب معبر عن كل اتجاه ، ولغة تميز كل صنف ، ومنهج يمثل كل اختيار ، يمكننا ان نحدد مطامحنا ونعين هدفنا ونختار الطريقة التي بها نحقق الغاية ونصيب الهدف ، فنحدث التغيير الثوري في جميع ابعاده الفكرية والثقافية والتربوية والعلمية ويكون الادب فيه حقا المرآة العاكسة للاتجاه الحضاري محصلة تلك الابعاد واللغة العربية فيه ، الوسيلة الوحيدة للاتصال والتعبير والمعاملة والتعليم .

فهدفنا واضح وهو رد فعل تفعل ، ورفض لوضع ، وتحدلواقع، واستجابة لحضارة ، ومطمح لوحدة تعيد لنا المجد وتبني لنا القوة في عصر لا تقدم فيه للشتات ولا حياة فيه للانفصال والانعزال ،ولا مكان فيه لملوك الطوائف ، فأول طريق نعتفد سلوكه للوصول الى ذلك الهدف هو النضال لاجل توحيد المناهج التربوية وتخليصها من شوائب التناقض ومن هجين الطرق ومن آخلاف محتوى الكتب والتاليف ومن سلبيات العزلة والانعزال ، بتوسيع زاوية الرؤية الحادة في كل منهج الى زاوية منفرجة تمسح كل المنطقة العربية من المحيط الى الخليج ، وبلغة واحدة في المعنى واللفظ والمصطلح، حتى يشعر كل فرد ويعمل كل قطر عمل العنصر في مركب والعضو في جسم ، سواء كان ذلك بحركة ارادية منظمه أو غير ارادية هادفة .

ومن هو اجدر من المفكرين القوميين والادباء الملتزمين لتحقيق هذه الغاية خاصة وان اغلبهم ينتمي للتعليم وجميعهم يشعر بهذا الشعور ويصبو الى ذاك الطموح ، فالاديب المعاصر هو الذي يدفع بالمجتمع الى حياة معاصرة نلبي رغبة الامة ويتحمل مسئولية التنفيذ ومشقه التغيير .

ثاني طريق نرى سلوكه هو استعمال اللغة العربية من طرف المهندس والطبيب والفني في مجالات العلم للاسماء الاجنبية التي لم تدخل بعد قواميس اللغة ولم تسبق لها معنى في الحياة بالصقل والتهذيب وحسب اوزان اللغة ونطق اللسان ، كما اضطر اجدادنا في علاقاتهم مع الاقوام المجاورة ان يأخذوا الاسم الاعجمي ،فيصقلونه ويهذبونه حتى يخرج كأنه عربي صميم واصبحت تلك الالفاظ المستعارة عربية فصيحة ما دامت تخضع لقواعد اللغة ونحوها دون اي تمييز ، وما دام تقبلها الذوق السليم في عذوبة الجرس وسهولة اللفظ دون نفور او نشاز . فقد قال ابو علي الفارسي وابن جني : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » .

لقد عمد العرب الى التعريب منذ الجاهلية ، فعربوا عن الفارسية : الابريق والسندس والدولاب والكعك والسميد والجلاب والنرجس ..الخ وعربوا عن الهندية : الزنجبيل والفلفل والشطرنج والكافور والمسك والقرنفل .. الخ وعن اليونانية : القسطاس والقنطار ... الخ .

وفي صدر الاسلام عرب العرب ايضا عن الفارسية : الكوز والجرة والخوان والطبق والفصعه والفستان والزنبق والمغنطيس والمارستان .

وبهذا النفتح اصبحت اللغة العربية غنية مسنوعبة لحضارة ذلك العصر العلمية والفكرية والفلسفيه . وفي عصرنا الحاضر دخلت منذ قرن آلاف من المصطلحات والمفردات اتى اللغة العربية تعبر عما جد من تقدم حضاري في جميع الميادين لم يطلع عليها اساتذة اللغة في بلادنا ولم نر استعمالها في كتابات الادباء او في وسائل الاعلام اوفي اجهزة الادارة او في مناهج التعليم في بعض الاقطار العربية ، مما جعل البعض يتهم عن جهل قصور اللغة العربية عن مواكبة العصر ، في الحال انه يجهل ايضا اللغة العلمية الاجنبية وما تفرزه يوميا من الفاظ جديدة . فقد قال المهندس وجيه السمان عضو مجمع اللغة العربية بدمشق :« ان حركة التعريب تسير الان بخطى حثيثة بعد ان تسلمتها الايدي المختصة بها ، فاهتمت بها الجامعة العربية عن طريق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بواسطة المكتب الدائم لتنسيق التعريب الذي اعد لنا مشاريع المعاجم التي بين ايدينا ، واشهد بانه عمل فيم جدا . وبفضل المجامع اللغوية والجامعات ومختلف الوزارات العلمية لا بد من ان تؤتي هذه الجهود المتكاثفة ثمارها الطيبة في مستقبل قريب » .

ولا يفت في عضدنا تأخرنا في مضمار التعريب ، فان حركة وضع المصطلحات قائمة على قدم وساق حتى في الدول المتقدمة في العلم ، وهي حركة دائمة لا تقف ابدا ما دام العلم يتقدم ويفتح كل يوم مجالات جديدة ويضع مصطلحات حديثة . وقد غزت المصطلحات الاجنبية كل لغه تأخرت ولو قليلا في تدارك شأنها . وها هي ذي فرنسا ، على علو باعها في العلوم ، تشكو من غزو المصطلحات الانكليزية لها، فيقول الاستاذ ابتيامبل ،الاستاذ بجامعة باريس بمهاجمة هذا الغزو في كتابه : « هل تحدثون الفرنكلية » كما تقوم الفرنسية بعرض المناهج التي يمكن بها معالجة السيل المتدفق من المصطلحات الانكليزية لوضع ما يقابلها باللغة الفرنسية فاذا كان ابناء اللغة الفرنسية يشكون فما بالنا نحن اذن ؟

ولهذا فان شكوانا من قصور لغتنا او اتهامنا لها بالعجز فانما هو جهل بمكامن الطاقة ومرتكزات القوة المحركة للعربية ـ اولا ـ وقصور فكري ونقص كفاءة علمية ـ ثانيا ـ وعدم استعمال ما هو موجود او لما استجد ـ ثالثا ـ سواء في الاعلام او الادارة اوالتعليم.

فاللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ،وموت اللغة دليل على موت اهلها ماديا وفكريا او حضاريا ، ولذلك لا مناص لنا من فتح النوافذ المسدودة والابواب المغلقة على لغتنا لتحتوي الدخيل من المفردات السليمة البنية وتتقبل الالفاظ العذبة الجرس والصيغ السهلة النطق مثلما فعل الاقدمون من الاجداد وما اتبعته لغات الغرب والشرق المعاصرة دون خوف من فساد او خجل من استعمال . فالكثير من الالفاظ من كل اللغات تموت يوميا بموت استعمالها او ببطلان مدلولها . والكثير يولد بمولد عنصر او اكتشاف مركب لم يعرف له اسم سابق ولا معنى قديم ، ذلك هو قانون الحياة المميز للتقدم والخاص بالتطور والتجديد في كل اللغات .

تونس — أحمد الشرفي